عبقرى

" . . لم أر عبقريًا يفرى فريه[1] . . "

كلمة قالها النبى عليه السلام فى عمر رضى الله عنه، وهى كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال.

فمن علامات العظمة التى تحيى موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها، أولاهما أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع لعمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم، ولأى المواقف يصلح، وبأى الأعمال يضطلع، ومتى يحين أوانه وتجب ندبته[2] ومتى ينبغى التريث فى أمره إلى حين.

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب.

فأين - لولا الدعوة المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب - كنا نسمع بابن الخطاب؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء؟

إنه الآن إسم يقترن بدولة الإسلام ودولة الفرس ودولة الروم وكل دولة لها نصيب فى التاريخ. فأين كنا نسمع عمر لولا البعثة المحمدية؟

لقد كان ولا ريب خليقًا أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى آلة الأقربين أو بين قريش الكبرى، ثم ينتهى شأنه هناك كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخير. لأنهم عظموا أو لم يعظموا. يعطون البيئة كفاءة

---

(١) فرى الجلد: قطعه ليصلحه، وفرى الفرى أتى بالعجب. والمعنى أن عمر عبقرى منفرد فى عمله فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه.

(٢) اسم من ندبه للأمر أى دعاه.

مـا تطلب من جهـد ودراية، وهى تطلب منهم مـا يذكرون به فى بيـئتـهم، ولكنها لا تطلب منهم ما يذكرون به فى أقطار العالم البعيد.

وقد كـان عمر قـوى النفس بالغًا فى القوة النـفسية، ولـكنه على قوته البالغـة لم يكن من أصحاب الطمع والاقـتحام، ولم يكن ممن يندفـعون إلى الغلبة والتوسع فى الجاه والسلطان بغيـر دافع يحفزه إليه وهو كاره. لأنه كان مفطوراً عـلى العدل وإعطاء الحـقوق والتزام الحـرمات مـا التزمهـا الناس من حوله. وكان من الحائز أن يهـيجه خطر على قبيلته أو على الحجـاز ومحارمة المقدسة فى الجاهـلية فينبرى لدفعة ويبلى فى ذلك بلاء يتـسامع به العرب فى جيله وبعد جيله، ولكنه لا يعدو ذلك النطاق ولا هو يبالى أن يمعن فى بلائه حتى يعدوه.

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه.

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقـرة الخمر والانصراف إليها. فإنه كان فى الجاهلية كـما قال "صاحب خمر يشربها ويحـبها" وهى موبقة[1] لا تؤمن حتى على الأقوياء إذا أدمنوها ولم يجـدوا من زواجر الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها، ويكفهم عن الإفراط فى معاطاتها.

فعـمر بن الخطاب الذى عرفـه تاريخ العلم وليد الدعوة المحـمدية دون سواها. بها عرف وبغيرها لم يكن ليعرف فى غير الحجاز أو الجزيرة العربية.

أما القدرة الأخرى التى يمتاز بها العظيم الذى خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبى عليه السلام فى كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى، أى من اللحظة التى سأل الله فيهـا أن يعز به الإسلام، إلى اللحظة التى تدب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو - عليه السلام - فى مرض الوفاة.

---

(١) موبقة: مهلكة.

سيـر غوره واستكنه عظمـته، وعرفه فى أصلـح مواقفه فـعرف الموقف الذى يتقدم فيه على غيره والموقف الذى هو أولى بتقديم غيره وعليه.

وليست هى مفاضلة بين رجلين ولا مـوازنة بين قدرتين. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذى ينبغى أن يوضع فيه، والمهمة التى ينبغى أن يندب لها، والوقت الذى يحين فيه أوانه.

وربما رأينا فى زمانـنا هذا رئيسًا يوصى لنصـير بالوزارة ويوصى لغـيره بقيـادة الجيش، فلا تقول إنه يفـاضل بين النصير أو أنه يرجح أحـدهما على الآخر فى نيران الكفـاءة. وإنما يختار كلا منهما لموضعـه الوقت الذى يحتاج إليه، ولا غضاضة على أحد منهما فى هذا الاختيار.

فالنبى عليه السلام كان يعلـم من هو أبو بكر ومن هو عمر. وقد عادل بينهما أجل مـعادلة حين قال: (إن الله عز وجل ليلين قلوب رجـال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الـله ليشـدد قلوب رجـال فـيه حـتى تكون أشـد الحجارة، وأن مـثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: "من تبـعنى فإنه منى، ومن عصانى فإنك غـفور رحيم، ومثلك يا أبا بكر مثل عيـسى قال: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" ومثلك يا عمر مثل نوح قـال: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديـاراً" ومثلك كـمثل مـوسى قال: "ربنـا اطمس على أموالهم وأشـدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حـتى يروا العذاب الأليم").

كان النبى عليـه السلام يعلم - كمـا قال - أن عمر أشـد المسلمين فى الله، ويعلم أن فى أبى بكر لينا وهوادة. فـجمع للإسلام المزيتين حـين أختار أبا بكر للصلاة وضـمن هذا الاختيار معنى من مـعانى الاستخـلاف. أو كما جاء فى بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبى بكر بالقول الصريح.

فتعزيز الإسلام بعد نبيه كـان فى حاجة إلى كثير من الهودة والمجاوزة. وكان كذلك فى حاجة إلى كثيـر من الشدة والصرامة. ولن نذهب شدة عمر

إذا احتاج إليها أبو بكر فى محنة يشتد فيها اللين الوديع. إنما الخوف أن يذهب لين أبى بكر إذا أشتد عمر، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد. فإن الموقف إذا استنفد حجج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر إلى البأس ويصر عليه فأقرب شيء أن يعدل عمر عم لينه وأن يثوب إلى المعهود من صرامته ولدده[1].

وكان النبى عليه السلام يعلم أن احتمال التبعة أو "المسؤلية" خليق أن يبدل أطوار النفوس فى بعض المواقف والأزمات، فينجح اللين إلى الشدة وبجنح الشديد إلى اللين. لأننا إذا قلنا أن رئيسًا أصبح يشعر بالمسئولية فمعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يملية عليه طبعه، ولا يقنع باللين أول وهلة إذا كان من دأبه اللين، ولا بالشدة أول وهلة إذا كان من دأبه الشدة. ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهوغير مسئول.

وهذا الذى ظهر أعجب ظهور فى موقفى الصاحبين من حرب الردة. فإن عمر الشديد قد آثر الهوادة وأبا بكر الرفيق قد آثر القتال وأصر عليه. وكان عمر يقول: "إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمده الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم" ثم يقول للخليفة: "الزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب". وكان أبو بكر يقول متسائلاً: "أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها لو كره المشركون، قوله الحق ووعده الصدق، (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق).. (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثرة بإذن الله والله مع الصابرين). والله أيها الناس لو متعونى عقالاً لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين!"

---

(١) اللدد: شدة الخصومة.

هنالك بلغت التبصرة بوجوه الرأى المختلفات غاية مداها، وجاء عمر بقصارى ما عنده من حجج الرأى الآخر وضحت المناهج واستقر العزم والتقى الصاحبان عليه، فكانت شدتهما فى الحق شدتين.

وهب الأمر مع هذا قد اختلف فى موقف الصاحبين فما أبو بكر إلى السلم والمسامحة، فأين كنت شدة عمر ذاهبة عنه فى هذه الحال؟ أغلب الظن أنه الذى كان يتولى يومئذ أن يبسط وجه الشدة فى معاملة المرتدين. لأنه يعلم أنه المسئول عن بسط هذا الودة دون فيره، فلا تفوت الإسلام مزية من مزايا الصاحبين.

إن محمد عليه السلام قد عرف مَن هم رجاله وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه وبعد وفاته. فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم والعمل الذى يتولاه خير ولاية فى ذلك الموضع. ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما فى احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الرابحة، وأبو بكر الصديق وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول.

ولا يحسبن حاسب أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصودًا فى النيات قبل ذلك. فإن الذى يحسب هذا الحسبان يخطىء تلك الخطأة الشائعة التى لا تلبث على أقل من الرؤية والمراجعة: يخطىء فى وهمه خطأه الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع الزمن الأخير وليست هى من البدع فى زمن كان. لأن العظمة لم تكن قط وقفًا على العصر الحديث، ولاسيما العظمة التى ترجع إلى الفطرة القويمة والبديهة النافذة والنظر السديد.

فكل هذا التقدير الذى أجملنا شرحه كان تقدير قصد وتدبير، وكان مفهومًا على البداهة بين ولاة الأمر فى تلك الآونة، ملحوظة بينهم فى مناجاة النيات قبل أن نلحظه نحن فى عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ.

وإلى ذلك أشار عمر فى قول صريح لمن هابوه وتحدثوا بخوف الناس منه: "بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر وإلينا دونه. فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك فقد صدق، فقد كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه. وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكما قال الله، بالمؤمنين رؤوف رحيم، فكنت بين يديه سيفًا مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد. ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه أخلط شدتى بلينه، فأكون سيفًا حتى يغمدونى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل معه كذلك حتى قبضة الله عز وجل وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد، ثم أنى قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت[1] ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين: فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعض لبعض.."

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بعد موت النبى والحال على أشده فى يوم السقيفة، والمسلمون مختلفون على من يلى الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل: من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير!

ففى تلك المحنة التى تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعيات وتودى زلة الساعة فيها بالكثير الذى لا تستدركه الأعوام، كان عمر الحاد الشديد يخشى بوادر الحدة من أبى بكر ويهىء الكلام اللين ليعالج الأمر بالمرفق والتؤدة، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم: "وكنت أدارى منه بعض الحد - أى

(١) أضعف: زادت إضعافًا.

الحدة - فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك! فكرهت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوقر"

عمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبى بكر، وأبو بكر الحليم الوديع يكف عمر عن الكلام، فيطيع!

هؤلاء الرجال يعرفهم صاحبهم، وهذه المواقف يعرفها صاحبها، وهذه مسألة فصل فيها الزمن ولم يبق لنا نحن الذين نعود إليها ونستخلص عبرتها إلا أن نراقب ما فيها من آيات الإعجار، وسوابق النظر البعيد.

ما وضع أبو بكر خيرًا من موضعه وهو يلى الإسلام والخطر من داخل أهله، والطب الذى يطهم به هو طب التآلف والإحجام عن السطوة ما كان إلى الإحجام عنها سبيل.

وما وضع خيرًا من موضعه وهو يلى الإسلام والخطر عليه من أعدائه المحدقين به، والطب الذى يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذى لا ينكل[1] عن صراع.

وكأنما توقع النبى أن أيام أبى بكر معدودات ولكنها الأيام التى تحتاج إليه وتكفى لإنجاز عمله. وتوقع أن يأتى عمل عمر فى حينه المقدور فلا يفوت الإسلام أن ينتفع بمقدرته فى عهد أبى بكر ولا فى عهدة، نقول هذا على الترجيح ومن حقنا أن نقوله على التوكيد، لأن حديث النبى فيه غنى عن التخمين والتأويل. قال عليه السلام: "رأيت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب[2] فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا[3] أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربًا[4] فلم أرى عبقريًا فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن[5]".

---

(١) ينكل: يجبن. (٢) قليب: بئر. (٣) ذنوبا: داوا.

(٤) الغرب: الدلو العظيمة. (٥) عطن: مربط الإبل حول الماء.

وفهم فقهاء الإسلام أن ضعف النزع هو قصر المدة وانصراف العزم إلى حرب الردة، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيض العبقرية التى ينفسح لها الأجل وتنفسح أمامها منادح العمل، ويؤتى لها من السبق مالا يؤتى لغير العبقرين.

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين، فكلا المعينين مستقم فى وصف عمر بن الخطاب... أتراها على كلا العينين شيئًا غير التفرد الابتكار؟ كلا. ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفقته من هذه الصفات. من يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية أنه يكتب تاريخًا "لأول من صنع كذا أول من أوصى بكذا" حتى ينتهى بسرد هذه "الأوليات" إلى عدد العشرات.

وتلك هى العبقرية التى لا يفرى فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به، صلوات الله عليه.